(٣)

إحنا كده خوازيق*

كان عبده الحامولى مغنياً عظيماً. يقولون إن الله رزقه صوتاً لم يرزقه لمصرى آخر قبله أو بعده. وكان هو شديد الإعجاب بصوته، فكان يعذب الموسيقيين العاملين معه، وكان عندهم شىء يسمى الترجمة، وهى أن يقوم العازف بعزف أى نغمة يغنيها الأستاذ على آلته بمجرد أن يفرغ المغنى من إلقائها. وكان الحامولى لشدة إعجابه بصوته يأتى بنغمات بصوته يعجز العازف عن ترجمتها فيقول للحامولى:

– ودى أجيبها منين بقى يا سى عبده!

ويطرب سى عبده بذلك ويتمايل إعجاباً بنفسه ويقول:

– امال عامل لى أستاذ إزاى ومعاك كمنجة بمائتى جنيه!

– وأين تذهب الكمنجة إلى جانب صوتك يا سيد البلابل.. يا واد يا شقى!

ومن هنا أصبح سى عبده خازوقاً للموسيقيين، بل خازوقا عظيماً لأنه كان موسيقياً عظيماً.

والحقيقة أن صفة الخازوق تعتبر جزءاً من تكويننا الخاص، فكلنا خوازيق على درجات متفاوتة، ونـدر أن عرفت مصريا نجا من عيب الخوزقة.

□□□

وقد كنت مرة ناظراً لمدرسة ابتدائية، وكان معى تسعة مدرسين وأحد عشر فراشا، وكان كل واحد من هؤلاء خازوقاً. فمدرس اللغة الإنجليزية كان يعتقد أنه أعلم الناس باللغة الإنجليزية فى مصر والمشاكل بينه وبين

*نشرت هذه المقالة فى ٣١ مايو ١٩٨٧م.

الأولاد لا تنتهى، وإذا لم أراجع ورقة الأسئلة فى كل امتحان فلن ينجح إن شاء الله تلميذ واحد، وكان لابد كذلك من مراجعة تصحيحه لأوراق الإجابة لإنقاذ ثلاثة أرباع التلاميذ من السقوط لا محالة، وكان يقول: وماذا يعرف حضرة الناظر فى الإنجليزى حتى يراجع علىّ. وكنت أقول له: يا مستر حامد ربما لا يصل علمى بلغة الإنجليز إلى علمك. ولكن التعليم عملية إنسانية، وهؤلاء الأولاد يبذلون معك غاية جهدهم، وهم مرعوبون منك، وبعضهم يغمى عليهم فى لجنة الامتحان، والذى أفعله هو أننى أنقذهم من اليأس وأحيى فى قلوبهم الأمل.

أما مدرس الجغرافيا والتاريخ فكان أبلد إنسان فى الوجود، ولابد أن أكون أمام الفصل قبل كل درس حتى أطمئن على دخوله وأسمع صوته يلقى الدرس، وكان ينظر من النافذة فإذا رآنى انصرفت جلس وقال للتلاميذ: افتحوا الكتاب عند الدولة الطولونية.

– صفحة كام يا أفندى؟

– شفوا أنتم، وهذا هو الكتاب فى أيديكم ثم يجلس «ويعسل» كما كنا نقول.

ومدرس اللغة العربية كان يزعم أنه حاصل على العالمية إلى جانب دبلوم دار العلوم. وكان يقول إنهم طلبوه يدرس العربى للأمير فاروق، وأن الذى رشحه كان محمد توفيق نسيم باشا، وكان هو مدرس اللغة العربية لأولاده. ولكنه رفض لأن نسيم باشا كان يريده أن يكون جاسوساً فى القصر، وحاشا لله! ورفض الوظيفة فعاقبه نسيم باشا بإرساله مدرساً فى دكرنس، ومن هنا فقد كنا نحن والمدرسة والتلاميذ تحت مقامه السامى. وكان ذلك كله غير صحيح، ولكنى كنت أتحمله لأننى كنت أرى فى ذلك علو نفس وكبر همه وهو على أى حال أحسن من مدرس الرسم الذى كان يكلف التلاميذ بإهدائه صوانى الروانى وأطباق، القشدة وحلل الأرز باللبن، ويعطى الدرجات بناء على هذه الهدايا.

وهكذا كان بقية المدرسين خوازيق يحتاجون إلى صبر أيوب في معاملتهم، وكانوا جميعا أكبر منى سنا، ولكن طول التدريس للأولاد فى مدارس الريف هبط بعقولهم إلى مستوى الأولاد، فكانت عقولهم فى غاية الصغر، ومع أن مجالس المدارس لم تكن موجودة إلا أننى كنت أعقدها ليتقرر كل شىء بمعرفة الأساتذة، وكنت أقول لهم:

– يوم الأحد القادم الساعة الرابعة بعد الدروس عندنا مجلس خوازيق..

أما الفراشون فلم أجد وسيلة لتشغيلهم إلا بالضرب! وكان رئيس الفراشين ثوراً ضخماً مخيفاً، فكنت أفتش دورة المياه، ثم أقول: عم مهيلمى، هات الفراشين المسئولين عن الدورة والفلقة والخيزرانة، وكان أولئك الجحوش لا يستحون من العويل بصوت عال والخيزرانة تهوى على أقدامهم، وأقول لهم.

– إننى أتعب من الضرب وأنتم لا تتعبون منه! وماذا عليكم لو غسلتم الدورة بالماء والمقشة والصابون فى الصباح والمساء. إننى أشترى الصابون والمقشات من جيبى فتبلغ الوقاحة بكم أن تسرقوها، وليتكم مع ذلك تستخدمونها فى تنظيف بيوتكم، فهذا أيضاً شىء طيب. وقد غسلت الدورة بنفسى أمامكم أكثر من مرة، وقد رأيتم كيف يكون منظرها جميلاً بعد الغسيل، والأولاد يتعلمون منا النظافة، ويتوقف واحد منهم عن العويل ويقول:

– ما هى نضيفة زى الفل أهى يا سعادة البيه، ولكنك أنت حنبلى وعاوز تتعبنا بس.

– دى زى الفل يا حيوان. إذن فماذا يكون الزفت والقطران؟

وعندما أتت البعثة وبرقية الوزارة بإسلام النظارة إلى فهيم أفندى شكسبير أحسست أننى خرجت من جهنم. وأذكر أننى عندما أتيت ناظراً كانت كل هيئة المدرسة فى انتظارى فى محطة المنصورة ومعهم حمار

حصاوى محترم وطبل بلدى. وعندما رحلت لم يكن أمامى إلا عم مهيلمى رئيس الفراشين وسيارة عدمانة وضعت فيها كتبى ومتاعى، وانطلقنا إلى المنصورة بدون وداع. وقبل أن تتحرك السيارة أسمع أحد الفراشين يقول:

– يا عم ولا بعثة ولا أوروبا، دا ربنا استجاب دعوتنا فيه ونقلوه على أسوان.

ويقول المهيلمى:

– ده هريدى الكلب، ما رأيك فى أن اعفقه ونمده ونعطيه عشر خرازانات لا ينساها طول عمره؟!

□□□

وكان عندى فى ذات يوم خادم أعتقد أنه سيد الخوازيق.

كان يعمل عند والدى وأعطانى إياه، فضاعفت راتبه وعملت له ملابس جديدة جميلة.. وكان فى الحقيقة رجلاً شغالاً ونظيفاً، ولكنه كان خازوقاً يطلع من النخاشيش.. وكنت أيامها مدرساً فى كلية الآداب، ولكن عم رجب كان لا يتنازل عن أننى «عيل» لمجرد أنه كان يعمل عند أبى، وأبى قال له: خد بالك من الدكتور: لا يغرنك لقبه فهو فى الحقيقة «عيل» ولا يفهم إلا فى الكتب..

ولا أذكر أننى كلفت هذا الرجل بشىء إلا عمل ما فى ذهنه دون أى اهتمام بما أقول. قلت له مرة: يوم الخميس القادم يتغدى عندنا اثنان من زملائى، وأظن أننا نعمل لها صينية بطاطس بالفراخ مع الأرز.. والدكتور الصياد يحب المخلل وأنت تتقن عمل الخيار المخلل فاعمل لنا بعضه، ولا تنس سلطة الخيار والطماطم..

– حاضر يا دكتور..

ويوم الخميس أجد أن صاحبنا لم يعمل صينية بطاطس بالفراخ، بل حمر الفراخ على حدة وعمل كوسة بالطماطم والحمص الشامى وباذنجاناً مخللاً وصينية بسبوسة!

وكنت أعرف أنه هو شخصياً لا يحب صينية البطاطس، وكل ما عمله هو الذى يحبه، أى أننا كان لابد أن نأكل على هواه..

وفى ذات يوم قلت له: إننى متعب هذه الليلة، فأتنى بلبن زبادى وبقسماط من عند عبد الحليم البقال: وكان هذا بقالاً نظيفاً جداً ورجلاً محترماً فعلاً..

وأويت إلى الفراش لأننى فعلاً كنت فى حاجة إلى الراحة.. وصحوت حوالى السادسة مساء أحسن حالاً، جلست إلى مائدة الطعام أنتظر ما طلبت، وإذا بعمنا رجب يأتينى بطبق مهلبية أتى به من أقذر لبان فى الحى وسميطة محملة بالسمسم..

وقلت له: ما هذا يا عم رجب؟

– قال هذا اصح يا سيادة الدكتور. إن اللبن الزبادى غير مغذ وعبد الحليم بقال حرامى بيسرقنا. والمهلبية مغذية وأنت هفتان، وفيم ينفعنا البقسماط.. اسمع كلامى فهذا أحسن لك..

– شوف يا عم رجب هذه الأشياء تأكلها أنت، وتنزل الآن وتأتينى بما طلبت منك.. أننى أعرف مصلحتى يا أخ رجب لا توجع دماغى أرجوك وأعمل فى المكتب وإلى أن تعود وائتنى من عبد الحليم بزجاجة ماء صودا وإذا لم يكن عندنا ليمون فاشتر لنا ليموناً..

أما فصل الخطاب مع هذا الخازوق الفريد فكان زواجه، وكان عم رجب فى الستينات، ولكنه يأتينى ذات مساء.. وأنا أعمل فى غرفة المكتب ويقول:

– لقد حزمت أمرى ونويت أن أتزوج.

– كيف تتزوج يا عم رجب وعندك زوجة محترمة جداً فى البلد ولك منها أربعة أولاد وبنت متزوجة ومنجبة أيضاً..

– وماله يا سعادة البيه؟ وهل الزوج حرام؟ وربنا سبحانه وتعالى سهله علينا رحمة منه وفضلاً، وأنا والله تعبان فى حياتى معك لأنك طول الوقت

تعمل فى المكتب وأنا جالس وحدى فى المطبخ أو الصالة حتى ضاقت بى العيشة..

– وكيف تقول ذلك يا رجب وأولادك كل يوم هناك معك فى البيت، وأنت تخرج مع من يأتيك منهم وتجلسون فى المقهى أمام البيت، ثم إنك تذهب إلى البلد مرة فى الأسبوع وأنا تارك لك الحرية على ما تشاء..

– معلش يا سعادة «البيه» ولكن الزواج برضه سُترة.

– ومن هى السعيدة التى ستتزوجها..

– بديعة بنت البواب عم جمعة..

– سبحان الله! هذه لم تبلغ العشرين بعد! وهى عيلة. وهى فى سن بناتك..

– مفيش بنت اسمها عيلة يا سعادة البيه.. كلهن يولدن صالحات للزواج.. والبنت فايزه باسم الله ما شاء الله وراضية وأبوها راضى.. والمهر عندى وخير ربنا كثير، ثم إننى لن أتركك..

– وأين ستسكن بزوجك يا سى رجب..؟

– هنا فى الشقة غرفتى واسعة والحمد لله..

– كيف تكون واسعة يا عم رجب. وهى غرفة أوفيس متر ونصف فى مترين..

– تساع يا سعادة البيه تساع! إن شاء الله البيت ينعنش بدلاً من الكتمة التى نحن فيها، وأنت لا شىء فى حياتك إلا الكتب.

لا يا عم رجب.. أنا لا أوافق على ذلك، لأنه حرام أن تكسر قلب زوجتك أم الأولاد وحرام أن تكسر قلب عيلة مثل هذه وأنت فى سن أبيها أو جدها، وأنت وأبوها ليس فى قلبكما رحمة أو إنسانية، ثم إنك يا سى

رجب ستتزوج من هنا وتبدأ الخلفة من هنا، وبعد أقل من عام تكونون ثلاثة فى ذلك القفص، وكل عام عيل..

– طيب وماله يا سعادة البيه؟ حد يكره الخلفة والأولاد؟ إنهم خير وبركة، وكلنا سنكون خدامينك، وحرام يا سعادة البيه أن تقف فى وجه الحلال..

– مش ممكن يا عم رجب! إذا كنت تصر على هذا الزواج فأنت تترك البيت..

– تطردنى يا سعادة البيه بعد هذه الخدمة والعشرة الطويلة؟

– أجل أطردك يا عم رجب قبل أن تطردنى أنت. وأنا غير موافق على هذه الزيجة من كل ناحية إنها استعباد وظلم وأنا غير مستعد لفتح مصنع أطفال فى بيتى..

وأخذ حسابه وعليه مكافأة وترك البيت..

وبعد أسابيع عرفت أنه تزوج البنت الغلبانة، وسكن بها فى غرفة البواب، ومصنع الأطفال فتح فى الدور الأرضى.

□□□

ومن أعجب صور التصرف الخازوقى هو ما فعلناه مع السيد فوزى متولى..

وفوزى متولى مواطن مصرى عظيم. أنه صاحب فكرة تمثيل أوبرا عايدة فى معبد الأقصر. والرجل من أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد. إنه رجل أعمال ناجح يعمل فى فيينا عاصمة النمسا. إنه يملك شركة سياحية ويديرها بنجاح. وهو يحب بلده مصر. وحبه لمصر بعث فى خياله فكرة عظيمة هى تمثيل أوبرا عايدة فى الأقصر. وتستطيع أن تتصور كمية الخوازيق التى وضعناها فى طريقه، ولكنه صبر وصابر حتى نفذت الفكرة. وبفضله قفزت مصر إلى مركز الاهتمام العالمى، وتسارع أنصار الفن يؤيدونه ويشتركون فى حضور هذا الحفل العظيم ودفع كل منهم فى ذلك الوفا.

ومحافظة قنا أصبحت على كل لسان.. ومدينة الأقصر لبست ثوباً ثقافيا وعادت عاصمة من عواصم الحضارة في الدنيا. وبلا فيدو دومنجو اكبر مغنى أوبرا في الدنيا أتى وغنى في الأقصر واثنى على مصر وأهلها وحضارتها. والسيد محافظ قنا خطب في التليفزيون العالمى وتكلم بلغة إنجليزية جميلة. وأطفال مدرسة الأقصر غنوا نشيد مصر القومى للدنيا. والذى كسبته مصر من وراء ذلك المشروع لا يقدر بمال. وانتهت حفلات الأقصر وفاز بالكسب المادى والمعنوى من أهلها ألوف. ومصر كلها أثبتت للدنيا أنها بلد ذو مستوى حضارى عظيم.

ثم ماذا؟

كان تمثيل الأوبرا داخل المعبد قد اقتضى إنشاءات كثيرة لعمل المسرح وقاعة العرض وترتيب المناظر. وهذه كلها بنيت بناء. وكان لابد من إزالتها بعد العرض ليعود طريق الكباش إلى جلاله التاريخى. وبدلاً من أن تقوم سلطات محافظة قنا بإزالة هذه المبانى، وذلك يتكلف ألوفا استدعت السيد فوزى متولى وطلبت إليه أن يزيل هذه المنشآت على حسابه لأنه صاحب المشروع. أى أننا لم نكتف بأن أكلنا الرجل لحما ورميناه عظما بل كلفناه بأن يزيل عظامه لأننا حققنا مكاسبنا. وهذه هى طريقة شكرنا للمواطن العظيم الذى أتانا بهذا الخير العميم: أعطيناه خازوقاً محترماً حتى لا يعود مرة أخرى إلى خدمة بلاده.

□□□

وعلى طول عمرى وجدت أن العمل الجماعى فى مصر مستحيل، وسواء أكنا فى مجلس المدرسة أم مجلس الكلية أم مجلس الأمة فإن النكد والصراخ والسباب هو أسلوبنا فى التفاهم أو عدمُ التفاهم بتعبير أصح. وكل شركاتنا التى ينشئها أكثر من مواطن لابد أن تتحطم على خوازيق الخلاف وسوء الظن والاتهام. ونحن فى العادة نستقبل كل شىء على أنفسنا ونستكثر كل شىء على الآخرين. وقد كان لنا زميل أيام كنا نعمل فى

جامعة الكويت لا يكف عن التظاهر بالفقر. وقد كان لا يكف عن الهمس الخسيس: فلان يدخر خمسين ألف دينار فى العام، وعلان ينام فوق تلال المال نوماً! مع أننا كنا نتقاضى كلنا راتباً واحداً وأسعار البضائع واحدة للجميع، ولكن صاحبنا كان خازوقاً فريداً من نوعه. وقد كنت أكتب هناك مقالات فى جريدة القبس وأتقاضى عنها مكافأة متواضعة، لأن الكتابة هواية لصاحبها لا يستطيع صاحبها إلا أن يمارسها ولكن صاحبنا كان يقول إننى أتقاضى مائتى دينار مكافأة عن المقال! والذين يعرفون رجال الأعمال فى الكويت يعرفون أنهم لا يعطون الناس إلا الحد الأدنى من المكافآت والرواتب. وقد كان فى مجلس إدارة هذه الجريدة شيخ فى غاية البخل يحقق نحو مليون دينار كسبا فى العام من وراء المشاركة فى رأس مال هذه الجريدة التى كان لا يقرأها ولكنه قال لى مرة: يا فلان يقولون إن عدد الجريدة يوم الجمعة يبيع عشرة آلاف نسخة زيادة بسبب مقالك، وأنا لا أصدق هذا الكلام وأرى أن الأتعاب التى تتقاضاها عاليه! فأقول له: وفى رأى حضرتك ما هى الأتعاب التى استحقها؟

– إن أردت رأيى حقاً، فإننى أرى أن الكتابة لا تستحق أتعابا! يكفى أننا نضع إمضاءك على المقال، وهذا إعلان لك، وهو كفاية عليك! وأنا عضو مجلس الإدارة لا ينشرون اسمى قط!

قلت: يا مولانا أنا مستعد أن أبادلك: أنا أكتب المقال وأضع عليه اسمك وآخذ المليون دينار. وبذلك تفوز أنت بالإعلان فيفتح عينيه فى ذهول ويقول: وماذا أفعل بالإعلان. إننى رجل أعمال، ورجل الأعمال تهمه الفلوس ولا شىء سواها.

– لا يا سيدى، أنت لست رجل أعمال، إن رجال الأعمال هم نحن الذين نكتب المقالات والناس تشترى الجريدة لتقرأ، وأصحاب الإعلانات ينشرونها لأن الناس تقرأ الجريدة.

– وماذا أكون أنا إذن؟!

خازوق يا سيدى أنت خازوق. خازوق مليونير، وأنا لا أحسدك أو أغبطك لأنك خازوق!

ومعظم هؤلاء الموظفين الذين تراهم متربعين على المكاتب فى الإدارات خوازيق. ومن المستحيل أن ينجز الواحد منهم عملا من تلقاء نفسه. ولابد من أن تسعى إليه وتجرى بين يديه لتسلك أمورك لأن شعورهم بك منعدم. ومعظم الخدم الذين يعملون فى بيوتنا خوازيق. إنهم يعيشون على مالك ويتقاضونك برواتب باهظة ولا يكفون عن عمل الخوازيق، وهم فى أيامنا هذه لا يحسنون التنظيف ويأخذون سمسرة على كل ما يشترون لك من الخارج، ويلهفون كل ما غاب عن بصرك من أشياء بيتك، ولا يكاد الواحد يحمل لك فى قلبه أى تقدير أو محبة. وجيرانك خوازيق، فهم لا يتعاونون معك فى شىء يهم البيت فى مجموعة، والسلم - وسلم الخدم خاصة - مزبلة ولكنهم لا يتعاونون قط فى التنظيف أو نفقاته، والدنيا عندهم تنتهى عند أبواب شققهم، وقد هلكنا فى استخراج عشرة جنيهات من كل شقة فى الشهر لتنظيف السلالم ومدخل البيت، والغريب مع ذلك أنهم يشترون علبة قاتل الحشرات بعشرة جنيهات، وينسون أن الحشرات تأتى من قذارة السلالم.

أما العمال فى أيامنا فخوازيق أصلية، فهم لا يتقنون العمل قط ويتقاضون الأجر الذى يقررونه، ولا يصدقون فى موعد قط. وبكره.. عندهم معناها الأسبوع القادم، ويوم العمل عندهم يبدأ مع الظهر وينتهى فى الثالث بعد الظهر، ويقولون لك: أصل الدنيا صيام بقى وكل سنة وأنت طيب، وأنت تعرف أنهم مفطرون. كلهم مفطرون ولا يعرفون الصلاة أبداً، واسوأ العمال هم عمال الحكومة الذين يأتونك عشرة ليضعوا سلكاً، وكل واحد من العشرة يطلب بقشيشا والبركة فيك بقى يا سعادة البيه، وكل سنة وأنت طيب، وتدفع البقشيش فيقولون لك وهناك اثنان من زملائنا تحت فى السيارة وكل سنة وأنت طيب! ولا تتعجب من ذلك فنحن فى أيامنا تلك خوازيق، ولو كانت الخوازيق تصدر لكنا أغنى بلد فى العالم.